الرسائل الديوانية والإخوانية في المشرق والأندلس والمغرب

تمهيد:

عرف النثر العربي تطوّرا كبيرا منذ أن ظهر في العصر الجاهلي على شكل قصص وخطابة وحكم وأمثال ووصايا وبعض الرسائل وهذا بفعل الازدهار العام الذي مسّ جوانب الحياة المختلفة منذ العصر الإسلامي، فقد بدأ منذ هذه الفترة جنس الشعر في الانزياح عن الساحة الأدبية والثقافية تاركا المجال للنثر وفنونه، وقد تطوّر هذا الأخير بسبب نزول القرآن الكريم وظهور الحديث النبوي الشريف، وانتقال المجتمع من عصر المشافهة إلى عصر الكتابة والتدوين، وقد بلغ في هذا العصر أرقى درجات الفن والبلاغة ، حيث تميّز بالإيجاز والوضوح وجمال الألفاظ وحسن اختيارها وتحسين الأساليب وتزيينها باستثمار علوم البديع، والبعد عن التكلّف والتصنّع ، ومال النثر نحو أنواع جديدة كالرسائل الإدارية وكتابة العهود والمناظرات والتوقيعات، وما يهمنا في هذا الجانب هو ظهور الرسائل الديوانية والإخوانية.

*1/ الرسائل الديوانية والإخوانية:*

كان لفن الترسّل الذي ساد منذ العصر الإسلامي نصيب وافر من الاهتمام نتيجة اتساع رقعة الدولة الإسلامية وحاجة الخلفاء إلى مراسلة الولاة وإلى التعامل مع الأقاليم الجديدة التي احتوتها الدولة الإسلامية بعد الفتوحات، والاستفادة كذلك من الثقافات الأخرى التي امتزجت بالموروث العربي الإسلامي ، ونتيجة ظهور تنظيمات إدراية جديدة على المجتمع الإسلامي الجديد، وظهور ما يسمّى بالدواوين وما يرتبط بها من وظائف نشطت الكتابة النثرية وتعدّدت أغراضها وارتقت مكانة الأدباء وأصبحت الكتابة صناعة تحتاج إلى الإجادة من الناحية اللغوية والأسلوبية والمنهجية،وقد انعكس ذلك بالإيجاب إبداعا وتأليفا وتنوّعا.

أ/ الرسائل الديوانية: هي الرسائل الرسمية التي كانت تُكتب في دواوين الخلفاء والوزارات ويدور موضوعها حول أعمال الدولة ؛ من تولية الولاة وأخذ البيعة للخلفاء وولاة العهد، بالإضافة إلى الرغبة في معرفة أخبار الولايات وأحوال الجهاد والفتوحات، وما يتعلق بالأعياد والحج والعلاقات وعهود الخلفاء لأبنائهم ووصاياهم ، ووصايا الورزاء في تدبير شؤون الحكم وأساليبه،كما أشار على ذلك شوقي ضيف في كتابه"العصر العباسي الأول"، وكان لعمر بن الخطاب الفضل في نقل النظام الإداري الفارسي بعد فتح بلاد فارس، فأسّس نظام الدواويين، فكان في زمانه ديوان الخراج والجند، واتّخذ معاوية في زمانه ديوان الرسائل والخاتم، ومن أشهر كتاب الرسائل الديوانية نجد عبد الحميد الكاتب (ت132ه)،فهو الذي وضع أصول الكتابة الفنية، كما قام بترجمة ونقل تقاليد الفرس في الكتابة إلى الأدب العربي،وكان يولي اهتماما كبيرا للجانب الأسلوبي في الرسائل، ويركّز على دقة العبارات، ومناسبة التعبير لمقام الرسائل ووجهتها، كما أشاد بعنصر الفصاحة والبلاغة وأهمية جعل الرسائل أكثر احترافية وتعبيرا عن روح العصر وقضاياه، ويكون بذلك قد قدّم خدمة جليلة للأدب العربي في هذا المجال.

وعن خصائصها الأسلوبية:

تعتمد هذه الرسائل على الأسلوب المباشر والألفاظ الدقيقة واستعمال العبارات الرسمية، والإيجاز وعبارات التحية والتقدير والمعجم المهذّب، لذا كان يشرف عليها كبار الكتّاب المخصّصين لشؤون الحكم الداخلية والخارجية.

نماذج من الرسائل الديوانية:

- نصّ لرسالة ديوانية أرسلها يحيى البرمكي إلى هارون الرشيد عندما سجنه ، يقول فيها:

:"من شخص أسلمته ذنوبه وأوثقته عيوبه ، وخذله شقيقه ، ورفضه صديقه، ومال به الزمان ،ونزل به الحدثان ، فحلّ في الضيق بعد السّعة ، وعالج البؤس بعد الدّعة ،وافترش السخط بعد الرضا ، واكتحل السّهاد بعد الهجود ، ساعته شهر ، وليلته دهر ، قد عاين الموت ، وشارف الفوت ، جزعا لموجدتك ياأمير المؤمنين وأسفا على ما فات من قربك."

ومن الكتاب الذين اشتهروا بالبلاغة فى عصر المهدي، وربما لحقته هذه الشهرة فى عصر المنصور محمد بن حجر كاتب ولاة أرمينية والشام، واتخذه العباس بن محمد أخو المنصور كاتبا له، وقد كتب عنه رسالة إلى المهدي حين جعل ابنه الرشيد ولى عهده بعد أخيه الهادى سنة 163ه وفيها يوثّق البيعة لوليّ العهد الجديد على هذا النمط: "قد أتتنا بيعة هرون على حين ظمأ إليها وتطلّع نحوها، فتبادرتها أكفّنا، وأسرع إليها شاهدنا وغائبنا وبايعنا بيعة رضوان من الله بصحة من نيّاتنا وسلامة من صدورنا، مستبشرين ببيعتنا راغبين فيما صفقت عليه أيماننا، عارفين بأنها مفتتح نعمة ومقدمة فضيلة ودرجة فى الخير رفيعة مقدمين للسرور بها نصح الجيوب باذلين للرجاء فيها ثمار القلوب" .